مجلة دراسات وأبحاث

المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

Dirassat & Abhath

The Arabic Journal of Human and Social Sciences

ISSN: 1112-9751

عنوان المقال

المؤرخ أبو القاسم سعد الله و كتابة تاريخ الجزائر

د. سفيان لوصيف

جامعة سطيف 2

المؤرخ أبو القاسم سعد الله و كتابة تاريخ الجزائر

د. سفيان لوصيف

جامعة سطيف 2

الملخص باللغة العربية:

يتناول المقال بالدراسة والتحليل جوانب من حياة المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله، ومساره العلمي والأكاديمي الحافل والزاخر، حيث وهب حياته للعلم دارسا في الزيتونة، والقاهرة، وأمريكا، وأستاذا وباحثا ومؤرخا في أرقى الجامعات في الجزائر والعالم العربي، تاركا وراءه إرثا علميا أثرى به المكتبات الجزائرية، خاصة تاريخ الجزائر الثقافي وتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، وغيرها من المراجع والمؤلفات والتي من خلالها نكتشف سعد الله المؤرخ والكاتب والباحث والمثقف المهتم بقضايا وطنه الجزائر وعالمه العربي الإسلامي، فكان بذلك موسوعة تاريخية وفكرية وأدبية، استطاع أن يؤسس للبوادر مدرسة تاريخية جزائرية، وهنا حاولت أن أبين مختلف الآراء والمواقف جيل الأساتذة والأكاديميين الذين عاصروا المؤرخ سعد الله.

الملخص باللغة الإنجليزية:

the article study and analysis aspects of the lives of the Algerian Abu al-Qasim Saad Allah, and a path to scientific and academic track record and rich, where he gave his life to science scholars in Zitouna, and Cairo, and America, and professor and researcher and historian in the most prestigious universities in Algeria and the Arab world, leaving behind a legacy scientifically enriched by libraries Algeria, particularly Algeria's history and cultural history of the Algerian national movement, and other references and literature through which we discover Saad God, historian and writer, researcher and intellectuals interested in his native Algeria's issues and his world the Arab-Muslim, was so historical, intellectual and literary encyclopedia, was able to establish the signs of historical Algerian school, and here I tried to show different views and attitudes generation of professors and academics who have lived through the historian Saadallah.

الكلمات المفتاحية:

- تاريخ الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله.
- المؤرخ الجزائري.
- البوادر مدرسة تاريخية جزائرية.

مقدمة:

يعد المؤرخ أبو القاسم سعد الله من مؤسسي المدرسة التاريخية الجزائرية، و أحد أقطاب التاريخ و الأدب والفكر في العالمين العربي والإسلامي، و الذين كونوا جيلا من الباحثين و الأكاديميين و المؤرخين، و من الذين أثروا الكتابة التاريخية و الفكرية الجزائرية المعاصرة بما أنتجه من مؤلفات كثيرة و غزيرة أرخت للجزائر في عهود مختلفة، بداية من العصور الإسلامية الزاهرة و الفترة العثمانية الحديثة ثم العهد الاستعماري، لاسيما في تاريخ الحركة الوطنية أو تاريخ الجزائر الثقافي و غيره، و امتد عطاؤه إلى دراسات فكرية و سياسية في تاريخ الجزائر المستقلة، و قد تناول إنتاجه العديد من القضايا و المسائل الإشكاليات التاريخية والفكرية، وتهدف هذه الدراسة إلى التعريف بشخصية عميد المؤرخين ومساره العلمي مؤرخا وأديبا وكاتبا وباحثا ومثقفا.

1 - أبو القاسم سعد الله: جوانب من حياته

المؤرخ أبو القاسم سعد الله من مواليد سنة 1930 في قرية قمار إحدى ضواحي واد سوف بالجنوب الشرقي الجزائري، تلقى تعليمه الأول في وادي سوف حيث حفظ القرآن الكريم، واصل تعليمه بجامع الزيتونة بتونس بين سني 1947 - 1954، و تحصل على شهادة الأهلية و كان الثاني في دفعته المتخرجة، منذ صغره أولى اهتماما بالأدب حتى لقب بالناقد الصغير، عاد إلى الجزائر في نفس سنة التخرج، فشغل مهنة التعليم بداية بمدرسة الثبات بالحراش التي كان يديرها الشهيد الربيع بوشامة، ثم درس في مدرس التهذيب بعين الباردة ولاية سطيف[1].

بدأ يكتب في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين في بداية الخمسينات، حيث استهل سعد الله حياته الثقافية و هو طالب علم ومعرفة بكتابة الشعر، و كانت باكورة أعماله اثنتي عشرة قصيدة كتبها ما بين 1954 - 1956 لتؤلف ديوانه الصغير النصر للجزائر، الذي صدر بمناسبة أسبوع التضامن مع الشعب الجزائري الذي نظمه الاتحاد العام لنقابات العمال المصري، ثم استمر في نظم الشعر ليصل رصيده الشعري إلى خمس وعشرين قصيدة بين 1954 - 1960 جمعها في ديوانه ثائر و حب، خلال دراسته في تونس بدأ النشر في جريدة النهضة والأسبوع التونسيتين و الآداب اللبنانية كما ساهم في إنشاء رابطة القلم الجديدة[2].

انتقل إلى القاهرة في أكتوبر سنة 1955 بمساعدة من جمعية العلماء المسلمين، حيث التحق بكلية الآداب و العلوم الإنسانية و حصل منها على شهادة الليسانس في اللغة العربية و العلوم الإسلامية سنة 1959[3]، بعدها كانت الخطوة التي حدت من توجه سعد الله الشعري و دفعت به إلى ميدان الكتابة، فكانت رسالته للماجستير التي حضرها في القاهرة في موضوع محمد العيد آل الخليفة رائد الشعر الجزائري الحديث سنة 1961، جعلت من فكره الأدبي ينضج و يبلغ حتى تبلور أسلوبه و طريقته في التعامل مع اللغة[4].

سافر إلى أمريكا سنة 1962 والتحق بجامعة ' Minnesota ' التي حصل منها على شهادة

دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الانجليزية سنة 1965[5]، هنا نلاحظ أن سعد الله دخل تخصص جديدا و هو التاريخ يبرر ذلك سعيدوني بقوله:« إذ سوف يجد سعد الله نفسه بفعل ظروف الدراسة الجامعية بجامعة مينيسوتا، و بتأثير من حركة المد التحرري و الزخم الثوري الذي أفرزته الثورة الجزائرية، يتحول من معالجة الأدب إلى بحث قضايا التاريخ فكانت دراسته حول الحركة الوطنية الجزائرية منذ سنة 1900 »[6].

النشاط الثقافي والعلمي لأبي القاسم سعد الله في تونس ومصر:

كانت بداية الحياة الفكرية والعلمية والثقافية لسعد الله حياته إعلاميا، مراسلا من تونس في جريدة البصائر التي كانت تصدرها جمعية العلماء، و في غيرها من جرائد تونس، و كان في نهاية الأربعينيات ومطالع الخمسينيات من القرن 20 شاعرا شابا، كما كان قاصا مبدعا وصاحب خواطر رائعة نشرها في جرائد الجزائر وتونس ومجلة الآداب البيروتية، و كان متابعا ومطلعا على ينابيع الثقافة المشرقية، و ظل على تلك الحال قارئا نهما يطالع كل ما يقع في يده من كتب و مجلات وجرائد ومطبوعات.

استفاد أبو القاسم سعد الله بذهابه إلى تونس بكل ما كل ينشر هناك من ثقافة متنوعة، و بذلك استطاع أن يوفق بين مهمة الطلب و التحصيل من الكتب الخارجة عن المقرر، و قد كانت تلك الكتب تستهويه و تأخذ بمجامع قلبه الأثر البالغ في تكوينه و تحصيله اللغوي و صقل مواهبه في مجال الشعر و الفن القصصي، و فيها نجح في نشر تجاربه القصصية و أشعاره الأولى و خواطره المبدعة في جريدتي النهضة والأسبوع وهو دون العشرين، وفيها تعرف على أدب المشرق و تابع باهتمام و انتظام ما كانت تنشره الآداب اللبنانية و أبوللو و الرسالة المصريتين وغيرهما من المجلات الأدبية التي لم تكن تصل إلى الجزائر، و كان مساره في هذا الاتجاه الجديد موفقا، بل كان بمثابة الفتح العلمي الجديد الذي جمع بين الاطلاع و النشر[7].

و من جهوده في تلك الأثناء إسهامه بمعية زمرة من زملائه و صحبه المبدعين في تأسيس رابطة القلم الجديد التي اتفق على تسميتها و الانضمام إليها، و رابطة القلم الجديد جمعية أدبية غير معتمدة من أية جهة رسمية، و اعتمادها الوحيد هو اتفاق أصحابها و مؤسسيها على تسميتها بهذا الاسم، و هي قائمة فيما بينهم فقط، و قد نشر بعضهم باسمها محاولاتهم الأولى، و هي تتألف من تونسيين و جزائريين، و كان أبرزهم أبو القاسم سعد الله الذي ظل أكثر التزاما برابطة القلم الجديد.

و بعد ذهابه إلى دار العلوم بالقاهرة تفتقت مواهبه الإبداعية و راحت تشق طريقها نحو عالم النشر، وبالموازاة مع دراسته في دار العلوم استطاع أن يكون جادا في دراسته، الأول في الترتيب دائما، يعلم أن وجوده في أرض الكنانة معجزة وهو الغريب الذي لم يكن يملك قوت يومه، وفيها وجد نخبة من العلماء المحققين الذين أخذ عنهم أصول العلم وحقائق المعرفة، وكان نعم الطالب الوارث لعلمهم الغزير، فقد كان من أساتذته في دار العلوم المحقق الكبير الأستاذ عبد

السلام محمد هارون و الأستاذ الدكتور سامي الدهان والأستاذ الدكتور عمر الدسوقي.. وغير هؤلاء.

وفي تلك المرحلة تابع أخبار النخبة المثقفة في مصر من خلال كثرة مطالعاته وشغفه بالأدب الذي هيمن على عقله، وشغل وقته بالإدمان والاستزادة من لذة القراءات المتواصلة التي جعلت منه فيما بعد سعد الله العالم المحقق وشيخ المؤرخين والباحث الأكاديمي الموسوعي، وفي مصر شدته أيضا الحياة الفكرية و تعرف على حقيقة الواقع الثقافي و ما كان فيه من مشاهد متباينة، و أدرك بوعيه الغض أبعاد رسالة المثقف ومواقفه الفكرية و ما يترتب عليها من انتماء و تحديد اتجاهات، و بالرغم من الظروف العسيرة التي التحق فيها بدار العلوم، فقد كان من أنشط الطلبة وأقدرهم على الإبداع و الكتابة، و كان يحرص على تنظيم و قته و برمجة نشاطاته التي لم يكن يحيد عنها يمنة أو يسرة بفضل انضباطه الدقيق و التزامه بالعمل الجاد[8].

المناصب العلمية والإدارية:

- أستاذ مشارك في التاريخ بجامعة الجزائر بدءا من 1967 – 1971.

- أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر بدءا من 1971.

- أستاذ مساعد في التاريخ بجامعة وسيكنسن بالولايات المتحدة الأمريكية 1960 - 1976.

- وكيل كلية الآداب بجامعة الجزائر 1968-1972.

- رئيس قسم التاريخ بجامعة الجزائر بين 1969- 1971.

- أستاذ التاريخ بجامعة آل البيت 1996-2002.

- مؤلفاته:

عاش المؤرخ أبو القاسم سعد الله للعلم و بالعلم طيلة حياته، عندما كرس عمره و أفناه في هذا السبيل الشائك، و ترك تراثا غزيرا، وفكرا مستنيرا، أبقاه حيا بين الدارسين و المؤرخين، و المفكرين و ترك عشرات الكتب منها:

- موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي:

هي موسوعة ثقافية في مختلف التخصصات الإنسانية و الاجتماعية، يتناول التاريخ، و التراجم، و السير، و المخطوطات، و التصوف، و النحو، و الشعر، و المسرح، و الأنساب، و الاجتماع، و الآثار، و النوازل، و الجغرافيا، و القصور، والمكتبات، والمساجد، والزوايا، وعقائد، وأصول، واجتماع، ورسم، وموسيقى، وتفسير، و فلسفة، اتبع فيه سعد الله المنهج التاريخي الوصفي و التحليلي في دراسة المؤسسات الثقافية و الدينية و الاجتماعية و التعليمية، في فترة زمنية منذ بدايات العهد العثماني حتى استقلال الجزائر سنة 1962، و هذه الموسوعة التي جمعها أبو القاسم سعد الله من مختلف رحلاته، و استغرقت عقود لتأليفها تبقى مصدرا تاريخيا للأجيال، و منطلقا للمؤرخين المهتمين بالتاريخ الثقافي الجزائري.

لم تكن هذه الموسوعة الثقافية لتكتمل و تتتبع الحراك الثقافي في الجزائر في مختلف الأجزاء من الكتاب، إذ عاد فيه المؤلف إلى مئات من المصادر و المراجع، و الوثائق، والمخطوطات، والآثار، والوسائل المادية، في مكتبات ومتاحف

وخزانات وزوايا وأقبية، ومراكز بحث في شتى أنحاء الجزائر وفي خارجها في الجامعات ومراكز البحث، والمتاحف شرقا وغربا، و استفاد كثيرا من الأرشيف الفرنسي، و كذلك كتابات الباحثين و المؤرخين الفرنسيين في العهدين العثماني و الاستعماري[9].

دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، بيروت، 1966.

الحركة الوطنية الجزائرية (4 أجزاء)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1969.

محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط 1، مصر، 1970.

تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1982.

الزمن الأخضر، ديوان سعد الله، الجزائر، 1985.

سعفة خضراء، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1986.

أفكار جامحة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.

قضايا شائكة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.

في الجدل الثقافي، دار المعارف، تونس، 1993.

ـ هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر، 1993.

ـ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر(5 أجزاء)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

ـ تاريخ الجزائر الثقافي (9 مجلدات)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

ـ بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.

التحقيق:

حكاية العشاق في الحب والاشتياق، الأمير مصطفى بن إبراهيم باشا، الجزائر، 1982.

رحلة ابن حمادوش الجزائري، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، الجزائر، 1982.

منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987

مختارات من الشعر العربي، جمع المفتي أحمد بن عمار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1991.

تاريخ العدواني، محمد بن عمر العدواني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.

رسالة الغريب إلى الحبيب، تأليف أحمد بن أبي عصيدة البجائي، دار الغرب الإسلامي، 1991.

أعيان من المشارقة والمغاربة (تاريخ عبد الحميد بك)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

الترجمة:

شعوب وقوميات، الجزائر، 1958.

الجزائر وأوروبا، جون ب. وولف، الجزائر، 1986.

حياة الأمير عبد القادر، شارل هنري تشرشل، الجزائر- تونس.

الأدب العربي في اهتمامات أبو القاسم سعد الله:

إذا كان أبو القاسم سعد الله قد عرف أنه شيخ المؤرخين الجزائريين من خلال كثرة مؤلفاته في التاريخ، فإن سعد الله كانت له نزعة في الأدب و كتابة المقالات الأدبية في الصحافة، و ترك أيضا

بضمة في نظم الشعر، و عرف عنه أنه أول من كتب قصيدة في الشعر الحر الجزائري، و قد تعمق سعد الله في الأدب العربي، و تأثر كثيرا بالمتنبي، و إيليا أبو ماضي، و أبو القاسم الشابي، و الرافعي و غيرهم من الأدباء العرب[10].

وظف أبو القاسم سعد الله أدبه من شعر و نثر خدمة لقضايا الوطن، و التعريف بالرجال العظماء، منها قصيدة نظمها في الشعر العمودي، تتكون من واحد و ثلاثين بيتا، نظمها في حق الأستاذ الأديب الحفناوي، و لم ينس كذلك أبو القاسم سعد الله في شعره نظم أبيات في أحد أعمدة الأدب الجزائري محمد العيد آل الخليفة مبرزا فيها القيمة العلمية لهذه القامة الأدبية في الجزائر[11]، و في مجد و عطاء العظام مثل عبد الحميد بن باديس كتب قصيدة من أربعة و عشرين بيتا مبرزا دوره في إحياء أمة الجزائر و مجدها العظيم[12].

قضايا الفكر والهوية في كتابات أبو القاسم سعد الله:

القارئ لكتابات أبو القاسم سعد الله بشكل عام يجده لا يخرج عن إطار المفهوم الذي سبق شرحه و توضيحه، أي أنه لا يفرق بين القضايا المحلية الخاصة بوطنه الجزائر و القضايا المرتبطة بوطنه العربي الإسلامي، فهو حين دعا إلى التأميم الثقافي و جزأرة التفكير و الذوق و الاتجاه العام لا يقصد من وراء ذلك التقوقع على الذات مثلما تصور البعض يقول[13]:« إن الجزائر قبل كل شيء هي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، و هذا الوطن يؤمن بحضارة مجيدة ساهمت الجزائر نفسها في الدفاع عنها و تدعيمها، و أن محاولة الفصل بين الجزائريين و أشقائهم التي قام بها الاستعمار لا يمكن أن تصبح نهائية، و هكذا فإن الجزأرة في الحقيقة ما هي إلا عملية استعادة المياه إلى مجاريها أي ربط الثقافة في الجزائر بمصير الثقافة العربية الشاملة ».

الواقع أن اهتمام سعد الله في كتاباته بكل ما هو جزائري فكر سديد لذلك لا يمكن لأحد أن يلومه فهو في تحليله لتاريخ الجزائر يربطه بدائرة الحضارة العربية الإسلامية يقول[14]:« و قد يظن البعض بأني أقصر أبحاثي عن الجزائر لغرض شوفيني، الحق أن أبحاثي تنطلق في الأساس من نظرة شمولية للتاريخ العربي الإسلامي، و أن القارئ سيلاحظ أنني أربط بين تطورات الأحداث و الأفكار في الجزائر بواقع الوطن العربي و أحداثه و أفكاره، و كثيرا ما اشتكى إخواننا في المشرق العربي من عدم توفر المادة عندهم عن ماضي الجزائر ».

طالب بتوحيد الثقافة الجزائرية ذات الروافد العديدة يقول[15]:« الواقع أنني أستغرب إثارة موضوع مثل موضوع اللغة و الثقافة في الجزائر بالذات، في الوقت الذي سجلت جميع مراحل التاريخ أننا جزء لا يتجزأ من المغرب العربي في تاريخه البعيد و القريب و في حاضره و مستقبله، فأنا لا أفهم أن يكون للجزائر ثقافة و لغة ليست هي ثقافة و لغة دول المغرب، سواء كنا من المؤمنين بوحدة اللغة أو بتعددها أو بوحدة الثقافة أو تعددها »، المواضيع التي كان لها حضور متميز في فكر سعد الله كانت و لا

تزال قضية اللغة العربية في الجزائر و دور التاريخ في تكوين كيان الشعب، و ما أثارا من ردود فعل معاكسة و رافضة للتوجه العربي الإسلامي، سواء لدى أنصار الثقافة المحلية أو المدافعين عن اللغة الفرنسية و المنادين بالأفكار الشيوعية الأممية[16].

كان له إسهام في تكوين المناخ الثقافي الجزائري و رسم آفاقه في مسألتي اللغة و التاريخ و هما محور تفاعلات المجتمع، فاللغة العربية يعتبرها سعد الله روح الأمة يقول[17]:« يجب ألا يفهم من التعريب على أنه يعني التعريب اللغوي فقط، أعتقد أنه يرمز إلى معنى شامل و هو ربط حاضر و مستقبل الجزائر بماضيها العربي الإسلامي، أي هدم الفواصل و الحواجز التي بنيت خلال مائة و ثلاثين سنة من الاستعمار، و ذلك يعني قبل كل شيء الوعي بالذات و اكتشاف الماضي، و التراث الحضاري المشترك مع البلاد العربية و الإسلامية الأخرى ».

المحور الثاني الذي طبع تفكير سعد الله هو قضية التاريخ، التي كانت في صلب اهتمامه باعتباره أستاذا جامعيا مشرفا و موجها فقد كان يرى أن ' التاريخ الحقيقي هو الذي يكتبه أبناء البلد عن أنفسهم لأنه جزء منهم و لهم، أما وجهة النظر الأجنبية فتظل عملا مساعدا فقط '[18]، بهذه النظرة لعطاء سعد الله الأدبي و مساهمته التاريخية يمكن القول بأنه نجح إلى حد كبير في تقديم صورة متكاملة عن المثقف الجزائري الأصيل، فهو نموذج للكاتب الجزائري القادر على التأثير في وسطه الاجتماعي و التفاعل من خلاله مع الآخرين، هذه الصورة التي تنطبق عليه جسدها في تعريفه للمثقف بقوله[19]:« نعني بالمثقف الإنسان الذي بلغ درجة من المعرفة جعلته ينظر إلى مجتمعه، و إلى العالم كله بمنظار واع شامل و نافذ، و بهذا المعنى لا يمثل طبقة بعينها و لكنه شخص بلغت به خبرته و ذكاؤه إلى أن يرتفع فوق مستوى الإقليميات و الطبقات و الطوائف ».

حاول أن يطبق هذا المفهوم على المثقف الجزائري يتحدث طبعا عن مثقف ما بعد الاستقلال ' فالمثقف الجزائري عبارة تحتاج إلى مدلول واضح و إلى تحديد هل هو الكاتب مطلقا ؟ أو هل هو كل ذلك ؟ هل هو المفكر المتفلسف في الناس والحياة ؟ فإن المثقف بهذا المعنى حاضر غائب في نفس الوقت، هو حاضر بإنتاجه و غائب بفعاليته و تأثيره هو لعلنا بحاجة إلى المثقف القائد و ليس المثقف المنتج، و يحضرني مثالان للمثقف القائد في الجزائر هما بن باديس و مالك بن نبي، فهل عندنا اليوم واحد من هذين الرجلين '[20].

تكتمل نظرة سعد الله للمشكلة الثقافية انطلاقا من بعدها اللغوي و قيمها التاريخية، بترصد التحول الجاري على الساحة الجزائرية، و الذي انطلق من رفض الماضي و حمل معه فراغا فكريا و اغترابا ثقافيا و ردة سياسية و عدمية اقتصادية و فوضى اجتماعية، لم تعد معها الثورة التي طالما تشدق بها الكثيرون سوى ذكريات قابعة في ذاكرة النسيان، بعد أن تلطخت مبادئها بمساحيق إيديولوجية غريبة محي معها الموروث الحضاري إلا من خصائصه الإثنية[21]، فالثورة

التي تعجز عن التوالد و الإخصاب تهرم و تموت دون عقب و ما أكثر الثورات العقيمة[22].

- أبو القاسم سعد الله في عيون معاصريه:

صدر كتاب بعد فترة وجيزة من وفاة شيخ المؤرخين الجزائريين تحت عنوان " رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين... أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه "، جمع مادته ونسقه وأعده محمد الأمين بلغيث، جاءت فكرة هذا الكتاب بعد رحيل أبو القاسم سعد الله فقد حرص الأستاذ بلغيث على جمع كل ما كتب الأحباب في الجرائد، وأردفها ببعض الأعمال والدراسات التي كتبها زملاء وأحباب سعد الله عنه[23].

وفي مقدمة الكتاب يؤكد أنه من عرف سعد الله يعترف أن له مسارا ناجحا في جميع مجلات المعرفة الإنسانية و الاجتماعية والأدبية، وخبراتها المتعددة عبر العصور، واعتزازه الشديد بتاريخ وطنه القطري والكبير العالم العربي الإسلامي، و كل هذا أدركه كل من عرف سعد الله و هو باحثا مدة أربعة عقود من الزمن، التي استغرقها في البحث الرصين حتى صنع لنفسه مسار مؤرخ و عالم موسوعي.

في كتاب للدكتور محمد الأمين بلغيث الصادر عن دار التنوير للنشر و التوزيع بالجزائر، كرم الباحث المؤرخ الجزائري بتأليفه " تاريخ المغرب الإسلامي" بمنظور سعد الله اعترف بأنه من طينة الكبار الذين رسموا لأنفسهم مسارا جمع بين التعمق في جميع مجالات المعرفة الإنسانية، و خبراتها المتعددة و تراكماتها عبر العصور، و بين اعتزاز شديد برموز وطنه العربي الإسلامي الكبير.

إذ يعتبر سعد الله رائدا في تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى استقلال الجزائر، و هذا ما أدرك قيمته كل من عرف معاناة المؤرخ طيلة أربعة عقود من الزمن التي استغرقتها عملية الجمع و التحرير، و التنسيق، ثم الطباعة و التوزيع للقسم الأكبر من عمل المؤرخ، و من أجل هذا و غيره يقول بلغيث أحببنا أخلاق، و مسار وشخصية هذا المؤرخ، و الإنسان الذي سار على درب الصالحين من أمته، مدركا قيمة الزمن مهما طال، و أهمية التدوين لأنه هو من نبهنا أن أسلافنا.

سماه عبد الكريم عوفي هيرودوت الجزائر، و قال فيه:" كتبوا عن مآثره وقدموا شهاداتهم، و الحقيقة إنه مهما كتبنا و تحدثنا عنه فإننا لن نعطي الرجل حقه، لأن ما كتبه عن الحركة الوطنية و الثقافة الجزائرية و أعلامهما بمختلف أطيافها كثير و كثير جدا، ترك الدكتور سعد الله بصمة قوية بأعماله المتميزة، فهو عالم لا يُشق له غبار في منهج كتابة التاريخ و خدمة التراث والتعامل معه، إنه صاحب تجربة طويلة، أفنى عمره في البحث والتنقيب مُرتحلا إلى جهات مختلفة في أنحاء العالم، و لا نجانب الحقيقة إذا قلنا: إن الرجل صاحب مدرسة متميزة كوَّن رعيلا من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية، كالتاريخ و الآداب و الرحلات و الاجتماعيات "[24].

يعتبر رابح لونيسي أن المتتبع لمسار أبو القاسم سعد الله يلاحظ مدى اهتمامه بالتاريخ الثقافي للجزائر مقارنة بالمجالات الأخرى من هذا التاريخ، و يبرز ذلك بجلاء من خلال عمله

تاريخ الجزائر الثقافي، لكن هذا ليس معناه عدم اهتمامه تماما بالتاريخ السياسي، فقد أنجز ثلاثة أجزاء كاملة عن الحركة الوطنية الجزائرية التي يرد بداياتها إلى البذور الأولى للمقاومة في 1830، و توقف في تأريخه للحركة الوطنية في 1945، و لم يكتب إلا القليل جدا من المقالات حول ما بعد 1945، فتوقف في تاريخ الجزائر الثقافي عند 1954، لكنه استدرك ذلك فيما بعد، حيث وضع جزءا خاصا لتاريخ الجزائر الثقافي أثناء الثورة، و يبدو أنه غير راض على هذا الجزء تماما، فقد قال لولا قصر الزمن لأعدت كتابته تماما، و كأنه وضعه تحت ضغوط لم يرد الإفصاح عنها بوضوح.

و يمكن تفسير عدم كتابة سعد الله لتاريخ الثورة حسب الدكتور لونيسي بالخشية من غلبة الذاتية على كتاباته، بحكم أنه أحد المشاركين في هذه الثورة، و قد أجاب عن هذا السؤال في حوار له مع مجلة الجيش فقال " إنني أعرف بعض المؤرخين الجزائريين الذين إذا كتبوا عن الحركة الوطنية، كتبوا عنها من وجهة نظر أحزابهم، أو الهيئات التي كانوا منتمين إليها قبل الثورة. و أعتقد أن مؤرخي الثورة سيتأثرون أيضا بدورهم فيها و حدود مشاركتهم و مسؤوليتهم"، فمعناه كان يخشى أن يكون من ضمن هؤلاء المؤرخين، مما يمكن أن يفقده سلطته الأكاديمية فيما بعد[25].

كان رحمه الله متواضعا بكل معنى الكلمة، يتعامل مع الطلبة كأنهم أبنائه، يستمع لانشغالاتهم، و يهتم بآرائهم، يساعدهم و يوجههم كلما طلبوا ذلك، و هو في تعامله هذا لا يفرق بين الطالب الذي سبق و أن درسه، أو الطالب الذي لم يره من قبل، بل يعاملهم على السواء ... فكان يثني على رغبتي هذه و يشجعني رحمه الله، و الحمد لله فقد وفقني الله لتحقيق قسم من مخطوط الجامع الكبير للشيخ عبد الرحمن الثعالبي، و ناقشت مذكرتي في 2013، و كنت في خلال بحثي هذا لما استشرته، أفادني رحمه بمعلومات قيمة، سواء عن الثعالبي، أو عن أماكن تواجد مخطوطات أو مصادر قد تفيدني، و كانت فرحتي كبيرة عندما أريته مذكرتي و أبدى إعجابه بما قمت به من عمل، و هذه شهادة أعتز بها "[26].

خاتمة:

ساهم المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله في وضع بوادر لمدرسة تاريخية جزائرية، بعد عقود من الزمن شوه فيها المستعمر الفرنسي تاريخ الجزائر، فاعتكف وبهمة و عزيمة ناضل سعد الله بقلمه في إحياء تاريخ أمة، فترك وراءه عشرات الكتب و المؤلفات في شتى المجالات المعرفية، و خلف وراءه جيلا من الأكاديميين و الباحثين الذين هم على نهجه وفكره مقتدون، و بعد أكثر من نصف قرن من الكتابة التاريخية حق لنا أنا نسميه عميد و شيخ المؤرخين الجزائريين.

الهوامش:

[1] عبد الكريم بوصفصاف: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، قسنطينة 2005، ص.150.

[2] ناصر الدين سعيدوني:" أبو القاسم سعد الله، كاتبا ومفكرا "، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2000، ص.499، 500.

[3] عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، 151.

[4] ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص.500.

[5] عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.151.

[6] ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص.500.

[7] أحمد بن السائح: الدكتور أبو القاسم سعد الله فارس العلم والقلم ورائد المدرسة التاريخية الجزائرية.

[8] المرجع نفسه.

[9] عبد الكريم عوفي: أوسع موسوعة ثقافية جزائرية تنتظر الباحثين ' تاريخ ثقافي '، مجلة دراسات أدبية، ص.141.

[10] صالح سعودي: " شيخ المؤرخين أديبا، الناقد الصغير، الذي كتب أول قصيدة حرة بالجزائر "، منشور في كتاب أبو القاسم بعيون مختلفة، إعدد نجيب بلخيرة، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2014، ص.140،

[11] محمد سريج: أبو القاسم سعد الأديب الشاعر، منشور في كتاب أبو القاسم بعيون مختلفة، ص. 324.

[12] المرجع نفسه، ص. 325.

[13] أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس: 1982، ص.158.

[14] أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1990، ص.5.

[15] أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، آراء ومناقشات لقضايا فكرية وثقافية وأدبية، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس: 1993، ص.153.

[16] يمكن عرض موقف سعد الله من ذلك بالعودة إلى المقالات والمقابلات والمحاضرات التي عالجت وضع اللغة العربية ومكانة التاريخ مثل: في الجدل الثقافي، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، منطلقات فكرية، حوارات، تجارب في الأدب والرحلة، أفكار جامعة، تاريخ الجزائر الثقافي.

[17] أبو القاسم سعد الله: حوارات، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 2005، ص.76.

[18] المرجع نفسه، ص.38.

[19] أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، المرجع السابق، ص.9.

[20] أبو القاسم سعد الله: حوارات: المرجع السابق، ص.31.

[21] ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ص.511، 512.

[22] أبو القاسم سعد الله: حوارات، المرجع السابق، ص.49.

[23] نذكر منهم: الدكتور ناصر الدين سعيدوني، الدكتور محمد الأمين بلغيث، الدكتور محمد العربي معريش، الدكتور المرحوم إبراهيم مياسي، الأستاذ محمد رحاي، الأستاذ لحسن بن علجية، الدكتور عثمان سعدي، الدكتور رابح لونيسي، الدكتور إبراهيم لونيسي، الأستاذ مصطفى داودي، الأستاذ مازن مطبقاني، الأستاذ أحمد بن السايح، الدكتور علي غنابزية، الدكتور قمعون عاشورين الأستاذ محمد نوار، الدكتورة فوزية محمد بريون، الدكتور عبد الكريم عوفي، الدكتور ميلود عويمر، الأستاذ محمد بوعزارة، الأستاذة صاري أمينة، الأستاذ الأخضر رحموني.

[24] عبد الكريم عوفي: هيرودوت الجزائر يرحل وتبقى موسوعاته التاريخية والثقافية تنتظر الباحثين، الشروق، ع 19 جانفي 2014، ص.11.

[25] رابح لونيسي: الخبر، أبو القاسم سعد الله فضّل الجهد الأكاديمي على خدمة الإيديولوجيات، 13 ديسمبر 2015، ص. 14.

[26] أمينة صاري: شهادة من الجيل الأخير من الطّلبة في حقّ الدّكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله، الشروق، ع 19 جانفي 2014، ص.11.